حديث آمنة

كنا على شاطئ البحر يعلو حديثنا أمواجه حيناً ويتيح السكوت لصوت الأمواج أن تملأ آذاننا حينا آخر ، حتى مرّت بنا آمنة . رشيقة القوام مشرقة الوجه باسمة الثغر ، يزيدها جمالا بساطة ما تلبس وحسن اختيار ما تتزين به : وإذا صديقتى تقول ، هذه آمنة . فنظرنا إليها جميعاً وابتسمنا تحية لها ، فابتسمت وسارت فى طريقها . ولكن صورتها لم تغادر عيوننا ؛ فقد انبرت صديقتى تسألنى : ما رأيك فى آمنة تلك ؟ قلت إنها طيبة على أساس من الخلق متين فيما سمعت . قالت إنما اسال عن شكلها . قلت إنها جميلة أو تكاد تكون ؛ إنى لم أرها إلا مرّات قليلة ، وأكثر مارأيتها عابرة كما عبرت بنا الآن ؛ ولكنك أنت صديقتها وزميلتها ورأيك فيها أصدق من رأيى . قالت : إنى لأراها جميلة جدًّا ، ولكن كانت منّا من تراها قبيحة . كم أثارت فى نفوس زميلاتها الحسد وهى لا تدرى أنها تثير فى نفس أحد شيئاً . كان لها عالمها تسبح فيه ، ونحن من حولها نظن أنها معنا ونحار فى أمرها ، فلا هى تغضب أحداً ، ولا هى ترضى عن أحد . كنا نراها باردة جامدة متكبرة ؛ فمنّا من احتملتها ولم يغير هذا من نظرتها إليها ؛ ومنّا ، وهذه كانت كثرتنا ، من أبغضتها وتنفّست عن بغضها وحسدها بالحط من شأن جمالها بل بمهاجمتها أحيانا . ولكنها كانت كالنجم عالية لا تحس بهذا الصخب الذى يتصاعد من سكان الأرض . كم ظلمناك يا آمنة ! كنا نظن هذا كبراً منك وزهواً بجمالك واعتزازا بمالك ؛ فقد كنت أيسر منّا حالا وأسعد حظا . ولكن حسدنا إياك كان أجدر أن يكون شفقة بك . فمن العسير أن تحرم المرأة مالاً وجمالا ، ولكن الأعسر منه أن تمنحهما فلا يتيسر لها أن تنعم بهما . لقد صرفت حياة آمنة عن مالها وجمالها صرفاً ، وإذا هى تشقى ولا تعرف لنفسها من الشقاء مخلصا .

ثم سكتت صديقتى وعلا صوت الأمواج صوتها وتنبهنا جميعا من غفوة الإنصات إليها . ولكنى لم أطق أن أسمع من حديث آمنة هذا القدر دون أن أعرف ما أوحاه . فقلت . ومن أين يأتى الشقاء تلك المخلوقة الهادئة الجميلة ؟ قالت : من قلبها ، وإنه لقلب كبير عظيم له جلال مظهرها وجماله وعذوبة حديثها وحلاوته. ثم سكتت الصديقة هنيهة كأنما تحاول أن تستعيد الذكريات ، واندفعت فى كلامها بعد حين لم تنتظر سؤالا ولا استفساراً ، ولكنها ، كعادتنا فى سرد مالا يُعرف من الأخبار ، استحلفتنا ألا ننقل إلى أحد مما سمعنا شيئاً ، فأكدنا لها ذلك ، فقالت :

كان ذلك فى يوم صاف مشرق دافئ من أيام أبريل ، يوم لن أنساه ؛ فقد هز مشاعرى أكثر من أى يوم من أيام حياتى ، وكنا فيه فى المدرسة وقد دق جرس انتهاء الدرس . فاندفعنا نحن المعلمات إلى غرفتنا وكأنما قد أنقذنا إنقاذاً . وإذا آمنة تدخل علينا متأخرة كعادتها ؛ فقد كانت تحب تلميذاتها ويحببنها حبا عجيبا ، فاستطاعت بهذا الحب أن تقهر ملال الدرس وسخافة التلميذات المشاكسات . ولكنها ما كادت تستقر فى كرسيها حتى دخلت علينا تلميذتنا هدى ، وهى صبية فى الخامسة عشرة من عمرها ، كثيرة الاجتهاد ، شاذة الذكاء تكاد تكون قبيحة لولا بريق من الذكاء يلمع فى عينيها الكبيرتين ، وابتسامة مشرقة تشع فى وجهها أبداً . وكنا جميعاً نحب هدى هنه ؛ لأنها كانت رقيقة الإحساس ، مهذبة الطباع ، ذكية الفؤاد ، تدل تصرفاتها جميعاً على انها من أصل طيب يمتاز بالرقى أكثر مما يمتاز بالمال .

واقتربت هدى من آمنة وقالت : إنى آسفة على ما قد بدر منى فسامحينى . فنظرت إليها آمنة مضطربة تكاد تدمع عيناها ، وقالت فى شئ من الجفاء لم نعهده فيها : لقد سامحتك . ولكن هدى انفجرت فى البكاء وهى تقول : أنت آخر من كنت أريد أن أغضبها منى . فقامت آمنة تهدئ من روعها وتجفف دمعها وهى تقول لها : لم أغضب منك . عودى إلى صاحباتك ياهدى والعبى معهن بدل أن تضيعى وقت راحتك فى تلك الغرفة الثقيلة . إنى لست غاضبة . إنى أحبك ياهدى فعودى . وكأنما كانت تريد آمنة أن تخلص منها فى سرعة ، ولكن هدى تعلقت بها وهى تجهش بالبكاء قائلة فى صرخة شاذة : وأنا أحبك ، أحبك أكثر من أمى . ليتك كنت أمى . نعم ! ليتك كنت أمى ! ولم تكد آمنة

تسمع هذا حتى سقطت على كرسيها ، وأخذت إحدانا هدى من يدها وأخرجتها إلى الحديقة . والتفتّ أنا إلى آمنة فقد كنت لها الصديقة الوحيدة إذ ذاك فإذا يداها كالثلج وعيناها غائرتان من الإعياء . فخشيت أن يكون قد أصابها شيء ، فضغطت على يدها وقلت لها : مالك يا آمنة ؟ قالت : لا شيء لا شيء . ودق الجرس واندفعنا إلى حجر الدرس ، ولكن آمنة اعتذرت إلى الناظرة وعادت إلى منزلها متعبة .

ولما عدتها فى هذا المساء وجدتها تذرع غرفتها ذهاباً وإيابا فى اضطراب عنيف . وجلست إليها أهدئها وأستحثها على الكلام ، ففى البوح بما تكتم شفاؤها ، فقصت علىّ قصتها :

كان ذلك منذ أعوام كثيرة مضت وآمنة تستقبل الحياة فى طهارة الفتاة الطيبة واستبشارها . قالت : ولم أكن أرى فى هذا المستقبل البعيد شيئاً . لم أكن أحلم بالأمومة ولا بالزوجية ، كلا ولا بالحب . كان مستقبلى البعيد غدى وما سأعمل فيه مع صديقاتى فى المدرسة . لست أدرى لماذا ظلت إلى هذه السن المتأخرة ، فقد كنت فى العشرين تقريباً لا تداعبنى أحلام تداعب كل فتاة قبل هذه السن بأعوام . لعل تربيتى كان لها أكبر الأثر فى ذلك ، فأنت أعلم بأسرتى وأحوالها . وكانت أختى الصغيرة هى سلوتى . أحبها كما كنت أحب دميتى . ولكن العجيب أنى لم أتمنّ أن تكون لى بنت فى جمالها . ولو قد تمنيت ذلك وأحسسته لربما أنقذت مما قد وقعت فيه . لست أعرف كيف أبدأ حديثى إليك ، ولكنى أظن أنه قد بدأ عندما مرضت أختى الصغيرة مرضها الأخير ، فعادها الطبيب وفى صحبته عمى سعيد كما كنت أدعوه ؛ فقد ألفت أن أراه فى بيتنا منذ كنت طفلة . كان صديق أبى وشريكه فى تجارته وزوج ابنة عمه التى كانت تزورنا قليلا ؛ لأن أمى لم تكن تألفها ولا تحبها . وكان بغض أمى لها لا يفسر بما كان يشاع من أن أبى كان سيتزوجها ليس غير ، ولكن لشراسة تلك السيدة وقسوة قلبها أكبر الأثر فى نفور الناس منها . وكانت تزورنا وكأنها مضطرة إلى تلك الزيارة ؛ لأن زوجها كان يحب أبى حبًّا جما ، وكان يحب أن يجلس إليه ليتحدثا فى شؤون تجارتهما أحاديث طويلة . وكان عمى ، كما تعودت أن أدعوه ، أكثر من أبى علماً وأقل مالا . ولعل فى قول أبى إنه شريكه كثيراً جدًّا من التجاوز ؛ فلقد كان فى الواقع يساهم فى تجارة أبى بمقدار

ضئيل ، ولكنه كان يقدم لهذه التجارة فى إخلاص كل ما كانت تحتاج إليه من خبرته القانونية ومعرفته العامة بالدنيا والناس . فلقد كان مثقفا ثقافة ممتازة . عاش فى أوربا أعواماً وزار أكثر بلادها ، ودرس عن كثب أسواقها التجارية ، كأنما كان يميل بفطرته إلى التجارة فلم يسعفه رأس المال . فلما اتصل بأبى صلة النسب والصداقة التى مهدت لهذا النسب وجد عنده ما كان ينقصه فنمت ثروة أبى على يديه نماءً عظيما ، وأصبح عنده هو من رأس المال ما لم يكن يطمع فى أن تيسره له خبرته العلمية وحدها .

ولكن مالى أطيل عليك فى هذا ! لقد كان كل منهما مكملا لصاحبه فى الحياة العملية ، وكذلك كانا فى حياتهما الروحية فيما كنت أحس . وثقل المرض على أختى فى أيامها الأخيرة فكانت زيارته لنا يومية ثم عجزت أمى عن العناية بالمريضة الصغيرة إذ مرضت خوفاً وقلقاً ، ولم يكن بد من أن أمرّض أنا الاثنتين . أتذكرين تغيبى عن الدراسة إذ ذاك شهراً كاملا ؟ ثم ماتت أختى وطال مرض أمى وشقاؤها ، ولكنها شفيت لتعيش كما ترينها الآن حزينة والهة على تلك الصغيرة الجميلة . فلم يبق لها بعدها إلا أنا ، وأنا كما ترين لا أملأ فراغ قلب أو بيت .

ألفت عمى وأحببته حباً بدأ أبويا وانتهى عنيفا . ولعله هو الذى أيقظ فىّ هذا الشعور النائم الحالم بالحياة والحب . فمنه سمعت أولى كلمات الإعجاب الملتهبة بالعاطفة الصادقة . ولكنه كان يقاوم هذا الحب مقاومة عنيفة لا من أجل زوجه ولا من أجل هدى ، فهدى تلك ابنته ، ولكن من أجلى أنا . كان يقول لى إن الفرق بيننا فى العمر أكثر من ربع قرن ، فإن أسعده هذا الحب مدى الحياة فلن يسعدنى أنا إلا أعواماً قصيرة . وكنت أنفى عنه هذه الفكرة . ولكنى لم أكن أفكر يوماً فى أن أكون له زوجة . كان حبه لى حبًّا أفلاطونيا كما يقولون . يعبدنى كما يعبد الوثنيون أصنامهم ولا يكاد يلمسنى كما يخشون هم لمس ما يعبدون . وعشت فى هذا النعيم عاماً ، لا أفكر إلا فى متى ألقى عمى سعيداً ومتى أخلو إليه لنتحدث فيما كان يجيده من فنون الحديث . والعجيب أنه لم يكن ليشير إلى زوجه ولم أكن لأشير إليها أنا أيضاً ، كأننا كنا لا نريد أن نعكر صفو أحلامنا بالواقع المرير . وفجأة عرض علىّ فى يوم من الأيام أن أتزوجه ، فبهتُّ لهذا العرض . وكنت أسمع طوال هذا العام أنه كاره لعيشه مع زوجه ، ولكنى كنت قد ألفت هذه الأخبار لأنه لم يهنأ فى

عيشه معها يوماً . ولكن حبه لهدى كان مضرب الامثال ، وكنت أعلل بقاءه مع زوجه واحتماله أخلاقها بحبه لهدى . فماذا حدث ؟ قلت له إنى لا أريد . قال فكرى فى الأمر ، وتركنى . وفكرت فوجدته مستحيلا . كيف أحرم طفلة كهذه من أمها مهما تكن ، وقلت له : إن آخر رأيى كأوله لن أحرم هدى من أمها . قال : إنى أحبها أكثر منك وأنا أدرى بصالحها . قولى إنك لا تريدينى أنا . قلت : هو هذا ؛ ولن أحرم هدى من أمها . وكان هذا آخر ما كان بيننا .

وظل عمى سعيد يدخل بيت أبى فلا أتحاشاه ولا أتعمد لقاءه . وفترت حرارة الحب لولا جمرات صغيرة تحت الرماد ، بل لقد مرّت بى فترات كنت أنظر إليه ، فأعجب مما كان بيننا من عاطفة حارة . حتى فضّت الشركة بينه وبين أبى ، ورحل هو إلى أوربا لأعمال تجارية قد تنقذ ثروته من الضياع . فحزنت لفراقه ، ولكنى فى الوقت نفسه ارتحت إذ ظننت أنه قد أسدل الستار على كل ما كان بيننا . ولكن أخباره عادت تملأ البيت من جديد . واستقل بتجارته ، ولم ير أبى لذلك سببا ، ولكنى كنت على يقين منه . وافترقا صديقين . وعاد لتجارة أبى رواجها فى هذه الحرب ، حتى إن ثروته لم تنقذ فحسب وإنما تضاعفت ، ولولا وفاته منذ أعوام لأصبحنا من أغنياء الحرب .

وفى هذه الأثناء كبرت هدى وجاءتنى تلميذة منذ العام الماضى . فأيقظ مظهرها هذا الحب القديم من مدفنه ، وبدأت أفكر فى عمى سعيد من جديد ترى ما أحواله . قالت لى أمى مرة كأنما تروى خبراً عابراً : إن هدى بنت فلانة عندك فى المدرسة ؟ قلت نعم . قالت : كيف هى ؟ قلت : ذكية طيبة . قالت : ما أشقاها ! قلت : لماذا ؟ قالت : بأمها . قلت : ولكن لها أبا تحسد على حبه لها . قالت : إنه أفلس . فخرجت من الغرفة حتى لا يلحظ علىّ أحد شيئاً . ترى لماذا أفلس ؟ وهل كنت أنا عاملا فى هذا ؟ فلقد كنت السبب ولا شك فى استقلاله عن أبى ، وربما كان هذا هو سبب إفلاسه . ولكنى اعتدت أن أدفن هذه الآلام بالخروج إليك ، فكنت آتيك على غير ميعاد لنتحدث . أتذكرين ؟ قلت أذكر ، ولكنك لم تقولى شيئاً من هذا . قالت : وكنت أريد ألا أقول شيئاً أبداً ؛ فلقد كنت على يقين من أمرى حتى اليوم . كنت كلما نظرت فى عينى هدى الواسعتين البراقتين قلت فى نفسى كم وفقت فيما ارتأيت لحياتى من مسلك . ألست أستطيع اليوم أن أنظر إلى هاتين العينين مرتاحة الضمير قوية القلب فلا يرتد بصرى ولا

أشيح بوجهى خجلا منهما ! إنى لم أعذب تلك المخلوقة الساذجة ولم أضح بها لأسعد أنا . كم كنت على حق ! إنى ألقاك ياهدى فأعطف عليك فى حرية واطمئنان ورضا عن نفسى .

وكانت كلمة أمى : «ما أشقاها بأمها» ترن فى أذنى أحياناً فأفكر فيها طويلا وكثيراً . فلقد كبرت وعرفت من أخبار هذه الأم كثيراً . إنها لا تعيش إلا ظلا لزوجها وأمر هدى يأتى فى المرتبة الثانية إن أتى . فإن حنا عليها زوجها ، وأنفق عليها فى سعة من ماله خفّت حدتها ولانت قسوتها . ولكن الويل لهُدَى بل لكل من يمر بحياتها إذا ما جفاها زوجها ، أو قتّر عليها فى المال . وهذا هو قد أفلس ، والإفلاس يستتبع شذوذاً فى الخلق ونفوراً من الناس بل كرهاً لهم . ترى أتعانى من جفاء أبيها لأمها كما كانت تعانى طفلة ؟ إنها اليوم صبية تفهم كل شئ حولها . ترى أتشقى بهذا الفهم ؟ وكنت أسائل نفسى كثيراً : أخيراً كان ما فعلت أم شرًّا ؟ ألم أكن أستطيع أن أنقذ هذا الرجل من الإفلاس وأنقذ هُدى من قسوة أمها ، ولكن أ أحرم هدى أمها ؟ هذا مستحيل . إنها لن تحس قسوة أمها إلا إلى حين ، ثم تعود فلا ترى أحداً كهذه الأم .

وهكذا انقضى العام الماضى وانا افكر فى هدى وفى نفسى . أسائل نفسى مرّات فى اليوم : أخيراً كان ما فعلت أم شرًّا . وأنا لا أريد أن أستطلع شيئاً ، أو أسأل عن شئ . وفى يوم رأيت عمّى سعيداً من بعيد ، وكانت الصلة بينه وبين أسرتنا تكاد تكون قد قطعت بعد أن أصبحت لا تعتمد إلا على قرابة أبى لزوج سعيد وكره أمى لها . وجمعت طرفاً من شجاعتى وتقدمت إليه وصافحته . فصافحنى ثم تحاشانى وسار فى طريقه ، يا لهول ما قد تغير ! إن التجاعيد ملأت وجهه وبهت نور عينيه حتى كاد يطفأ . إنه الآن رجل قد جاوز الخمسين بقليل ولكنه يبدو فى الثمانين من عمره . وعدت إلى نفسى ذلك اليوم باكية حزينة أسائلها فى حرارة : أخيراً كان ما فعلت أم شرًّا . وأبعدت الموضوع فى عنف وجهد وأنا أقول : وهل يمكن أن تكون الفرقة بين أم وابنتها خيراً ؟

وأخيراً لا أطيل عليك ، فقد رأيت اليوم وسمعت ما رأيت وسمعت : « ليتك كنت أنت أمى » . نعم حتى هدى معقلى الأخير الذى كنت أعتصم به فى أنى ما فعلت إلا الخير يسقط أمامى كأن لم يكن . حتى هدى تريدنى بعد نحو عامين من معاملتى لها كتلميذة أن أكون لها أما . إن صرختها لم تكن صرخة عابرة .

إنها صرخة من الأعماق ونداء من القلب . إنها تحبنى ، وكان يمكن أن تحبنى وتسعد بدل أن تشقى بحب أمها . ترى أقال لها أبوها شيئاً ؟

واستمرت آمنة تتحدث كأنما تناجى نفسها وهى تبكى . كم رثيت لها ! حقّا لقد كانت صرخة هدى صرخة شاذة ، ولكن أأقول لآمنة إننا ذهلنا لها جميعاً ؟ كلا !

قلت لآمنة : إنها صبية لاتدرك شيئاً ، ولم يكن فى صوتها وقد سمعتها أكثر من إحساس عادى بالندم لأنها أغضبتك . ومن هى من تلميذاتك التى تحب أن تغضبك ! ثوبى إلى رشدك . لقد فعلت خيراً ، وكان إتماماً لهذا الخير ألا تظلمى نفسك وتستجيبى لأحد الكثيرين الذين طلبوا يدك وكانوا لك أكفاء . قالت : إنى لا أزال أحبه . قلت هذا وهم يجب أن تخلصى نفسك منه . لقد فعلت خيراً ولا تفكرى لا فى هدى ولا فى سعيد . إن الأم إن كانت وحشاً ضارياً فهى أحن على ابنتها من زوج الأب . فكرى فى أنك كنت ستصبحين أماً لغير هدى ، وفكرى فى إمكان المساواة بين هدى وبين ابنك أو ابنتك . صدقينى يا آمنة لقد فعلت خيراً . خففى من عبرتك ، وانظرى إلى الحياة . إنها تقبل عليك إقبالا فلك فيها المال والجمال ، ولعمرى إنهما لكفيلان بإسعاد أشقى امرأة . استبشرى والبشر يأتيك . قالت آمنة فى هدوء : يا ليت هذا يكون . وخرجنا إلى النزهة ثم عدنا وقد اطمأنت نفس آمنة كثيراً .

ولكن آمنة لم تعد إلى المدرسة أسبوعا وأسبوعين . وكنت كلما ذهبت إليها قالت إنى لاأطيق أن أرى هدى . قلت لها : كلا ! بل ترينها وترينها وتنظرين إلى عينيها الواسعتين وأنت مطمئنة سعيدة . إنك لم تكونى سبباً فى شقائها . اعطفى عليها ماشئت أو تجنبيها إن شئت ، ولكن لاتنسى أن تنظرى إليها وأنت رافعة الرأس مطمئنة القلب . لقد جنبتها أن تبكى لتسعدى . قالت مستبشرة : أحقّا ما تقولين ؟ قلت كل الحق .

وبعد أسابيع عادت آمنة إلى درسها ولكن هدى لم تعد ؛ فقد انتقلت إلى مدرسة أخرى لسبب لاندريه . أقالت لأبيها شيئاً فتصرف هكذا فى ابنته أم أن المقادير هى التى تصرفت فى أمر آمنة هذا التصرف ؟ وتابعت آمنة عملها فى اطمئنان وهدوء ونشاط . وسرعان ما عادت إلى سمائها وفترت صداقتنا لأنها لم تشجع على استمرارها ، وابتعدت عنها تحقيقاً لسعادتها ؛ فقد أكون لها ذكرى

لا تحب أن تمرّ بفؤادها كثيراً . وعاد قلب آمنة مقفلا كالحصن . كم اشتقت أن أعرف مايدور بهذا القلب من عواصف واضطراب ! ولكن آمنة لم تشجع أحداً على الدنو منها . وها هى ذى تسير إلى اليوم بيننا فى جمالها وجلالها تعلو وجهها الجميل مسحة من الحزن لايراها إلا الأقربون .

ثم سكتت صديقتى هنيهة لتقول كأنما هى تقول لنفسها : ترى أخيرا كان ما فعلت آمنة أم شرًّا . حقًّا لست أدرى .

ومرّت بنا آمنة عائدة بعد أن انتهت من زيارة أو رياضة ، فتأملتها فإذا فى ابتسامتها مرارة تزيد من جمال ثغرها ، وإذا فى عينيها حزن يزيدها عمقاً وسحراً ، وإذا هى فى جمالها وجلالها ومن ورائها البحر بامتداده واتساعه كالمركب الضائع فى لجج البحار . إنها أروع صورة للهائمين على وجوههم فى هذه الأرض لا يدرون أعلى بر النجاة نهايتهم أم فى هذه الأعماق السحيقة المخيفة سيكون المصير .

مهير الفلاوى